حول مشاكل السينما الفلسطينية

بقلم محمد عامر

على جميع اصعدة الفكر التقدمي تتبلور فكرة لا يختلف عليها اثنان وهي ان السينما ، والفن بشكل عام ، كلما كانت ملتزمة بقضايا ومشاكل الجماهير الكادحة كلما كان تاثيرها اعمق ، وبذلك يتحقق هدف لا يمكن التغاضي عن اهميته وهو عكس جوهر الواقع بصور مرئية تضيف الى مقومات وعناصر الصراع الاخرى في المجتمع دفعة قوية لتغيير الواقع ..

■■■

وليس حديث « لينين » مع « اناتولي لوناتشارسكي » حول اهمية الفن السينمائي — بانه اهم الفنون بالنسبة لنا — بذلك الحديث العابر ولكنه حديث رجل سياسي محنك ادرك الدور الخطير الذي كان ممكنا ان يلعبه الفلم في ذلك الوقت ، والذي تجدر بالسينمائي دراسته دراسة منهجية حتى تتحدد امامه ملامح وابعاد هذا الفن . لقد وعت البرجوازية اهمية الفن السينمائي فراحت تستخدمه من اجل تثبيت ايديولوجيتها ومن اجل الحصول على الارباح التي يمكن ان يغدقه الفلم عليها .. ومع الثورة التكنولوجية التي كانت ملازمة لتطور البرجوازية كقوة تاريخية معينة ، وكشرط لتطور قوى الانتاج اخذت البرجوازية توسع قاعدتها التي استطاعت من خلالها تحقيق نظامها الاجتماعي، تطورت اجهزة الاعلام كالسينما والراديو والتلفزيون وغيرها .

فالسينما الى جانب الراديو والتلفزيون تعتبر من اهم اجهزة الاعلام التي نشات لتخدم في البداية مصالح البرجوازية واهمية ذلك تكمن في الميزة الجماهيرية للسينما وتاثيرها الفعال في المشاهدين . ولا يغفل المرء بهذه المناسبة سرد القصة التي رواها الكاتب والسينمائي المجري الكبير «بلا تبلاج» في مجرى حديثه عن دور الفن السينمائي وهذه القصة تقول بان احد الافلام قد عرض في قرية ايطالية وكانت مشاهد من هذا الفلم تدور حول احداث بركان . وفي اثناء العرض سقط بعض حبيبات رمل من سقف قاعة العرض . مما جعل المشاهدين يعتقدون بان بركانا قد ثار فغادروا القاعة في هلع وضجيج ، وقد اسفر الحادث عن بعض الاصابات . ان المشاهد حينما يذهب لقاعة السينما ليرى فلما ما انما يذهب الى هناك ليعيش احداث قصة ويهمه ان يرى مشاكله على الشاشة والايماء على الاقل بحلها كما يهمه ايضا المعايشة الفنية في السينما .. ان قيمة العمل السينمائي تبرز في تحديد وظيفة العمل ، مكان العمل والهدف منه .

كما ان على السينمائي ان يعطي المتفرج ما لم يره من قبل ، اي ان عملية الابداع هي التي يقوم كل عمل فني على اساسها .

اذن فاين السينما الفلسطينية من كل هذا ؟

السؤال المطروح على بساط البحث هو ضرورة تحقيق وجود سينما فلسطينية ملتزمة ، واعني في الالتزام ايضا الابتعاد عن التزمت التنظيمي وعن بساطة المعالجة السينمائية لاي موضوع من مواضيع قضية فلسطين ..

ان التزمت التنظيمي ، شئنا هذا ام ابينا ، هو ظاهرة موجودة لا بد من القضاء عليها .

وان ما يصرف على مؤسسة السينما الفلسطينية من اموال يجب ان لا يكون لفئة دون اخرى ، فالعملية ليست عملية احتكارية ولن تكون بعلبة وواقعية اذا تجاوزت مسالة هامة وهي الروح الرفاقية النضالية والعمل الجماعي في التحضير والانتاج .

ولياخذ بعين الاعتبار بان السينمائي الفلسطيني ليس من الضرورة ان يكون عاكسا للآلام والظروف الصعبة التي تسببها القنابل الإسرائيلية فحسب وانما عليه ان يسير بالكاميرا وقبلها بعينيه وفكره داخل المخيمات فيها اكثر المواد واقعية وصدقا .

فالموضوع اذن ليس ما ذكرت فقط وليس هو عملية سرد تاريخي — قد يكون احيانا مبعثرا — لقضية فلسطين ، او العمل البطولي لعملية او منظمة ما فحسب وانما هو قبل كل شيء تناول المجتمع الفلسطيني — على ارض جغرافية معينة ، والمشاكل التي يعاني منها وربط قضية كفاحه بقضايا التحرير العربي والعالمي ..

ان السينما الفلسطينية تفتقر الى لغة سينمائية جيدة وهذا ناجم عن عدم اتساع مجال الخبرة العملية والنظرية للسينمائي الفلسطيني. ان الاعمال السينمائية الفلسطينية لا يستطيع المرء مقارنتها بالاعمال السينمائية للشعوب المناضلة كشعوب الاتحاد السوفياتي اثناء الحرب العالمية الثانية والشعب الفيتنامي اثناء حرب فيتنام .. الخ .

ولا اعتقد ان الواقع الفلسطيني والعربي بقاهر على بعث « رومان كارمن » الفلسطيني الذي كان يعمل على كتفيه الكاميرا وفي فكره وقلبه كان يحمل قضيته . وكم من مبدع سينمائي فيتنامي سقط في ساحة النضال وهو يصور معارك شعبه ونضالاته . يقال ان الكاتب والسينمائي السوفياتي العظيم « سيمونوف » الذي كان عضوا في لجنة التحكيم في مهرجان لايبزج للافلام القصيرة والتسجيلية في نهاية شهر تشرين الثاني ١٩٧٤ بعد ان شاهد كثيرا من الافلام العربية وخاصة المصرية منها ، قال بانه تسمع الكثير عن بطولات الجيش العربي في معارك اكتوبر ولكنه لم ير في المهرجان افلاما تدور حول هذه المعارك التي كان من الممكن استغلالها خير استغلال .

ان الاحداث التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني في بيروت وفي جنوب لبنان تجسد ثروة سينمائية هائلة يمكن استغلالها اذا توفر قبل كل شيء عنصر الالتزام .

ولا بد من الاعتراف بان السينما الفلسطينية ما زالت غير ناضجة بغض النظر عن بعض الافلام الفلسطينية كفلم « بيوتنا الصغيرة » للفنان « قاسم حول » الذي شكل بمجمله هذا فجوة جيدة في مجال السينما الفلسطينية فلم يكن من قبيل المصادفة ان يفوز هذا الفلم احدى الجوائز الاولى الرئيسية في مهرجان لايبزج للافلام القصيرة والتسجيلية سنة ١٩٧٤ . كما ان على المرء ان لا ينسى افلاما اخرى بعيدا عن المنظمات الفدائية كفلم (نحن الفنان قيس الزبيدي و (بعيدا عن الوطن) ان الفشل الثقافي والفكري في كثير من الاوساط الرسمية والاوساط الرجعية لا يمكن تبريره اذا انعكس على ساحة السينما الفلسطينية . ان الفكر الثوري الصحيح لا يتبلور خلال المؤسسات الثقافية الرسمية فالطبيعة الطبقية لمعظم انظمة الحكم في الدول العربية لا تنسجم مع النضال الثوري لمعظم فصائل حركة المقاومة الفلسطينية .. كما ان الفكر التقدمي لا ينشا الا من خلال الممارسة وقبلها النقد البناء وليس النقد من اجل النقد .. كما ان طرح البديل لهو من اهم الميزات التي يتصف بها كل ناقد تقدمي ..

ان السينما الفلسطينية تعيش ازمة .. وازمتها في غياب المنهج السليم لدى معظم العاملين في حقلها ، وايضا في طريقة عرض الموضوع وفي عدم الجراة على اختراق حواجز الخوف والتعامل مع الواقع والانتصار في بوتقة العمل النضالي .. وحتى يكون المرء منصفا عليه الا يدعي بان عمله في مجال السينما الفلسطيني — واعني به هنا كل من يعمل في مجال السينما الفلسطينية من غير الفلسطينية ايضا — لم يستوعب حتى الان قضية الصراع الطبقي التي على محورها تدور كل صراعات العالم . الا ان مفهوم هذه القضية اصبح عند الكثيرين مفهوما ميكانيكيا جامدا ..

ولا يبرز اهمية الماركسية اللينينية عند الفرد الا اذا استوعب ما قاله كل من ماركس وانجلز ولينين وليس في عدد الكتب التي قراها منهم

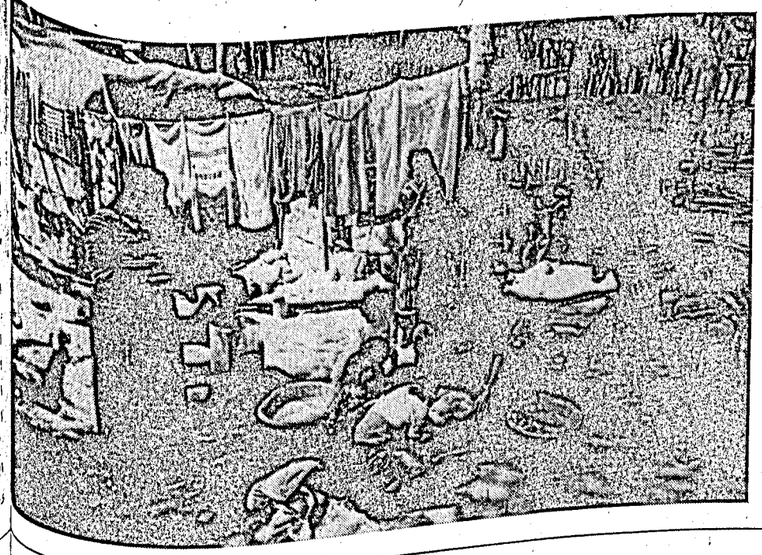

كتاب مهمّ عن السّينما الثوريّة

صدر مؤخرا في فرنسا كتاب عنوانه « دليل الافلام الثورية » (٢٢٣ص) يحتوي على لائحة طويلة للافلام التي يمكن استعمالها في اطار النضال الثوري عبر السينما . نجد في هذا الكتاب عناوين ما يقارب ٣٠٠ فيلم من جميع بلاد العالم وتحليل لـ ١٥٠ من بينهم مع عناوين المخرجين وارقامهم الهاتفية احيانا لتسهيل الاتصال بهم او عناوين الهيئات المسؤولة عن نشر هذا الفيلم او ذاك .

ينقسم الكتاب الى ٨ فصول رئيسية : ١) العمال المهاجرين في غرب اوروبا ٢) البلاد العربية ٣) افريقيا ٤) امريكا اللاتينية ٥)امريكا الشمالية ٦.)الهند الصينية ٧)المقاومة الفرنسية ايام الحرب العالمية الثانية ٨) الصين الشعبية .

في القسم المخصص للبلاد العربية تحل فلسطين في المرتبة الاولى ونجد تحليلا لـ ١١ فيلم فلسطيني او عن فلسطين مع عناوين ووصف صغير تليه المعطيات الفنية لاكثر من ٥٠ فيلم وثائقي عن فلسطين بينهم « النهر البارد » و« والكلمة البندقية » للجبهة الشعبية . اما الافلام المحللة فهي « المخدوعون ـ كفرقاسم ـ سنعود ـ نحن بخير ـ بالروح بالدم ـ لا وجود لهم » (البلاد العربية) « فلسطين ـ فلسطين ستنتصر » (فرنسا) « ثورة حتى النصر » (الولايات المتحدة) مع الفلسطينيين : شهادة فتاة اسرائيلية (الوطن المحتل) بلادي (سويسرا) .

المهم في هذا الكتاب انه يعطي القارىء لمحة سريعة ولكن كاملة عن ٣٠٠ فيلم يمكن استعمالهم كاداة للنضال . كتب طبعا من اجل مساعدة المناضلين الفرنسيين ولكن المناضلين العرب يمكنهم ايضا الاستفادة منه كون النضال واحد والعدو واحد في اي قارة كان : الامبريالية ، اميركية كانت ام ايرانية ام فرنسية ام المانية ام برتغالية .

والسؤال الذي نطرحه على انفسنا هو : هل يمكن ترجمة هذا الكتاب الى العربية ؟ هل سيجلب انتباه دور النشر عندنا ؟ ان لنا ان نتعاون فنيا واعلاميا عبر السينما مع الفئات المناضلة في اميركا اللاتينية والهند الصينية وافريقيا ونضال السود في اميركا الشمالية . جزء من اهتماماتنا الثورية .

وعنهم . ولا يبالغ اذ يقال ان على المرء ان يفهم ايضا دبالكتيك « هيجل » حتى يتسنى له فهم ماركس وانجلز .

من هنا نتبين الاهمية القصوى لبناء الفنان الذي عليه ان يعكس جوهر العالم في صور فنية بينما يعكسه العالم الطبيعي خلال قوانين علمية . وفي المجتمع الاشتراكي يركز المسؤولون الضوء على الوعي الاجتماعي والسياسي للفنان ، هذا الوعي الذي يجب ان يكون ملازما للعملية الفنية الابداعية برمتها ... وفي كتابة « حول الاخراج السينمائي » يقول المخرج السينمائي الكبير « بوتكفتش » بان السينمائي لا يعدو سينمائيا بارعا ما دام لا يحمل نظرة شمولية واضحة عن العالم — اي مع من وضد من يجب عليه ان يناضل — واذا كان ايضا لا يتقن حرفته .

وبتوفر احد العنصرين لا يمكن اسدال الستار على العنصر الاخر ، بمعنى ان (النية الحسنة) لا يمكن ان تاتي لوحدها بفلم جيد سواء كان روائيا او تسجيليا .. الخ . وهنا لا بد للفنان من فهم العلاقة الديالكتيكية بين الشكل والمضمون ، اذ انهما يشكلان معا « وحدة متماسكة » .

واذا بقي السينمائي الفلسطيني على حاله الاني نلا شك ان اغنية بلغة اجنبية عن القضية الفلسطينية قد تغني عن فلم مثل تلك الافلام وتعطي دائما افضل في النفس — وخاصة في النفس الاوروبية — التي لا بد وان نتجه اليها بقوة اكبر بقضيتنا العادلة .